الكيد ودلالته
في سورة يوسف

د . حامد علي غيلان
م . م مسلم هوني حسين
جامعة ذي قار

الكيد

ضرب من الاحتيال يكون مذموما وقد يكون محمودا وان كان يستعمل في المذموم اكثر قال ابن منظور :(الكيد : الخُبث والمكر وكاده يكيده كيدا ومكيدة وكذلك المكايدة وكل شيء تعالجه فانت تكيده ... والكيد الاحتيال والاجتهاد به وبه سميت الحرب كيدا والكيد ايضا التدبير بباطل او حق) ([١]) ويعني الخديعة ايضا وقد ينسب الى الله تعالى ((وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ))([٢]) أي العذاب ، قال بعضهم اراد بالكيد العذاب وجاء في مفردات الفاظ القران للعلامة الاصفهاني : ان الكيد في هذه الآية يعني الإملاء والإمهال المؤدي الى العذاب ([٣]) .

وقد تتداخل دلالة مفردة الكيد مع بعض المفردات كالمكر الذي يعني هو الاخر الاحتيال والخديعة ، جاء في تاج العروس ان (الكيد المكر والخبث كالمكيدة ، قال الليث : من المكايدة وقد كايده يكيده كيدا ومكيدة ، قال شيخنا : وظاهر كلامهم ان الكيد والمكر مترادفان وهو الظاهر وقد فرق بينهما بعض فقهاء اللغة ، فقال الكيد المضرة والمكر اخفاء الكيد وايصال المضرة وقيل الكيد الاخذ عن خفاء والكيد الحيلة والكيد الاحتيال والاجتهاد وبه سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها وهو مجاز)([٤]) واصل المكر الخداع او هو الاحتيال في خفية ، وفي مفردات الفاظ القران قال الراغب(وسمعنا ان الكيد في الحروف حلال والمكر في كل حلال حرام قال تعالى (وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) ([٥]) قال اهل العلم المكر من الله جزاء) ([٦]) ، سمي باسم مكر المجازي كما قال تعالى (جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) ([٧]) فالثانية ليست سيئة في الحقيقة ولكن سميت سيئة لازدواج الكلام ([٨]) والخداع ، انزال عما هو بصدره بامر يبديه على خلاف ما يخفيه قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) ([٩]) وفي الحديث (بين يدي الساعة سنون خدّاعة) أي محتالة لتلونها بالجدب مرة وبالخصب مرة ([١٠]) ولا يخفى على احد ما لهذه الالفاظ من تداخل في الدلالة فهي تكاد تنحدر من مصب واحد ، وتسير لتعطي دلالة واحدة ولكن ليست متطابقة لانها تاتي بما يتناسب وسياق كل تعبير الامر الذي يدل دلالة واضحة على (ان كلمة بل وكل حرف وضع وضعا فنيا مقصودا) ([١١]) في القران الكريم .

ان قصة يوسف (ع) في القران الكريم من القصص التي لم ترد الا في موطن واحد فهي الوحيدة مع بعض القصص القليلة جدا تدور احداثها في سورة واحدة ،(وهكذا فانت ترى ان القصة في القران كأنها تتكرر في اكثر من موطن والحقيقة انها لا تتكرر ولكن يعرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد)([١٢])ولما كان موطن العبرة والاستشهاد في قصة يوسف (ع) يدعو الى بيان حال اصحاب الكيد ، وهو العنصر الرئيس الذي بنيت عليه احداث هذه القصة الامر الذي ترتب عليه ان يكون لعنصر (الكيد) اثرٌ مهمٌ في حياة هذا النبي فكلفه ان يفقد اباه واخوته وحريته فيما بعد ، فالقصة انما سيقت من اجل تسليط الضوء على هذا الجانب والتركيز عليه لانه يعد ركنا مهما دارت عليه احداث هذه القصة فضلا عن ان هذه السورة التي ذكرت فيها قصة يوسف " ع " قد جاءت بعد سورة (هود) التي ذكر فيها قصص انباء الرسل بنحو مفصل ، كان معظمها يدور حول الطعن بوحدانية الرب تعالى ومن ثم عصيانه حتى كانت نهايتهم وان اختلف أسلوب الهلاك فهي الموت رغما عنهم ولعله السبب الذي من

اجله افرد القران هذه القصة وجعلها في سورة واحدة ولم يشرك معها قصة أخرى ، وذلك لانها لا تصطف مع قصص الانبياء والرسل في العبرة والاستشهاد .
فالقصة تروى عن طريق رواية الاحداث التي جرت ليوسف" ع "، و في هذه المشاهد يتراءى لنا وهو يعوذ بربه ويحاول الخلاص من المكائد التي حيكت له ، ان التجربة القرانية في هذه القصة تصور لنا نمطا اخر من سلوك الانبياء مع اقوامهم ، وهو اظهار الحق وابرازالخطيئة والاحتيال والكيد ولعل ما يميز خصوصية قصة يوسف " ع " هو نمطها الذي تمتد عليه ، فهي لا تتجاوز الاطار الاسري فضاء لها ، لا سيما في المرحلة الاولى التي مرت من عمر يوسف " ع " فهو لم يتعرض الى معارضة قومه كباقي الانبياء الذين اوذوا وابتلوا في سبيل اداء رسالاتهم ، ثم ان اخوته كانوا على دين ابيهم فهم موحدون وهذا ما يؤكده قسمهم لابيهم (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) ([١٣])وكذلك قول ابيهم لهم(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ([١٤])،((واكثر المفسرين ان اخوة يوسف " ع " كانوا على دين ابيهم وكانوا يعظمونه غاية التعظيم ولذلك طلبوا محبته)) ([١٥]) وفضلا عن السمة الفنية الناجمة عن بنية قصة يوسف " ع " فقد توافر فيها ما يمكن ان نطلق عليه الايقاع المسرحي ، لكونها تحتوي على تقنيات فنية راقية من راو معجز ، بداية ، نهاية ، وشخوص ، وحوار وزمان ومكان وحبكة وأحداث([١٦]).
فالشخصيات لاتتجاوز الثلاث في مرحلة الكيد الأولى فضلا عن الراوي المعجز (يوسف ، ابوه ، اخوه) الذي يعلن عن وجوده داخل فضاء القصة بقوله (لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ) ([١٧]) الامر الذي يحدد اسلوبا يسير في مستويين يتصلان بالحدث الذي بنيت عليه القصة ، الاول مركزي والاخر فني يقدم الدلالات والعبر فالاول الصراع المحتدم بين يوسف " ع " وإخوته المتمظهر بالحسد والاحتيال والمكر ، والكيد ، والثاني هو الاسلوب الفني الذي طرح هذه الدلالات ، والذي كان وراء احتدام وتحريك هذا الصراع الذي شمل كل القصة التي هي بدورها هيمنت على كل السورة ([١٨])، ومن هنا فان الكيد الذي كان عنصرا مركزيا تدور عليه هذه القصة قد انتج ثلاث لوحات قد افضت هي الاخرى الى ثلاث محطات مهمة من حياة يوسف " ع " كانت دلالة الكيد مفصلا مهما بين اللوحات الثلاث التي ارتبطت برباط عضوي وموضوعي لا يتجزأ ، قد افضت كل مرحلة الى الاخرى في انسياب دقيق يحركها الجانب السلبي المتمثل في الكيد والاحتيال الذي مارسه اخوة يوسف " ع " في بداية القصة ، التي استمرت في الكشف وتعرية هذا الجانب الى نهايتها .

<u>مرحلة الكيد الاولى</u>

ولقد حددنا المرحلة الاولى من حياة يوسف " ع " بمرحلة الكيد الاولى وهي المرحلة التي بدأت من قوله تعالى على لسان يوسف " ع " (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) ([١٩]) ، والكلام في الاية الخامسة من هذه السورة كانت على لسان يعقوب " ع " ، قال صاحب مجمع البيان عن ابن عباس ((ان يوسف " ع " رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر احد عشر كوكبا نزلت من السماء فسجدن له ورأى الشمس والقمر فسجدا له قال فالشمس والقمر ابواه والكواكب اخوته)) ([٢٠])وهذه المرحلة قد بدأت فعليا عندما تسربت رؤيا يوسف " ع " الى اخوته وقد تحقق قول يعقوب " ع " (يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً) أي يحتالوا في اهلاكك([٢١]) ونرى انه ضمّن فعلا يتعدى باللام فيكون اكثر تاكيدا وابلغ في التخويف[٢٢] فكانت مرحلة حسد وبغض وبغي وهلاك ، وكره تحرك في ذاتهم الامر الذي دفعهم ان يبعدوه عن طريقهم ، ومن هنا كنت محطة نفي ليوسف " ع " وابعاد دُفع اليها قسرا وهذا ما اشارت اليه الآية (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) ([٢٣])ولعل اختفاء يوسف " ع " وهو المحرك والفاعل للاحداث في القصة جعل الحديث عنه بصفة الغائب فالراوي يتحول من الراوي جلّ جلاله الى اخوته ومن ثم ابيه والاصوات على التوالي الراوي المعجز (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ) ([٢٤]) ثم قولهم المزعوم (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) ([٢٥]) ثم انتقال الصوت الى الراوي المعجز ليكون شاهدا على فعلهم (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) ([٢٦]) ثم انتقال الصوت الى ابيهم وهو النبيّ العارف قال (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) ([٢٧]) ، ((ولعل اختفاء اسماء الشخصيات في هذا المشهد والتركيز على اعمالهم لان اسماءهم غير مهمة ولان عملهم هو المهم)) ([٢٨]) ، ولعل ورود اسم الذئب دون الحيوانات المفترسة الاخرى دلالة واضحة ورمز ايحائي أريد منه التركيزعلى ما احيط به يوسف " ع " من كيد وحسد يؤدي الى الفتك به فكأن صفات الذئب جاءت مسايرة لعملهم ((وقيل ان يعقوب " ع " رأى في منامه كأن يوسف" ع " قد شدّ عليه

عشرة اذؤب ليقتلوه ... وقيل انه خاف عليه ان يقتلوه فكنى عنهم بالذئب مسايرة لهم))([٢٩]) ويمتد زمن الاختفاء من قوله تعالى (يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ) ([٣٠]) حتى يفاجئنا ان امرأة العزيز تراوده عن نفسه (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)([٣١]) ولا نستطيع ان نغفل بان القصة ((كائن حي له حياته الخاصة به التي لا يمكن تفسيرها تماما وكانه مجموع اجزائها)) ([٣٢]) لذلك فان القران الكريم يقدم لنا قصة يوسف " ع " وهي في نمو متواصل قد لا نرى فقرات هذا النمو لانه ليس له فائدة تذكر ، ثم ان الاختزال والتكثيف من عناصر هذه القصة ، فنراه وقد اصبح شابا يافعا قد بلغ مبالغ الرجال ، وقبل تعريضه لمرحلة الكيد الثانية ، وحتى يصبح قادرا على تجاوز الامتحان الثاني منّ عليه الله تعالى (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) ([٣٣]) فكان تمكينا اخر بعد الخروج من الجبّ بان يؤتى العلم والحكمة والنبوة وعلم الشريعة وقوله ((اتيناه حكما الحكم هو قول الفصل وازالة الشكّ والريب في الامورالقابلة للاختلاف)) ([٣٤]) ، ولعل مجيء هذه لاية مباشرة قبل الابتلاء الثاني يقررعدة امور:-

اولا :- ((ان هذه المواهب الالهية ليست جزافية ولا لغوا او عبثا منه تعالى بل ان هذا العلم والحكمة كانا من قبيل الجزاء لكونه من المحسنين)) ([٣٥]).

ثانيا :- ان هذا العلم هو ما وعد الله به يوسف" ع " من تأويل الأحاديث لمواجهة واقعه الجديد

والمعقد الذي يختلف كثيرا عن مجتمع البادية الذي جاء منه (إ ن المدينة تفترض وجود حوار

مع الجمهور الذي تمثله لان هذا الحوار يضمن لها الاستقرار ومعالجة الأمور بشكل حكيم)([٣٦]).

ثالثا:- لما كان يوسف" ع " مقبلا على مرحلة خطيرة من حياته وانه سوف يتعرض إلى اقسى أنواع الابتلاءات فالعلم والحلم والحكمة وكذلك الصبر كانت من سمات هذه الشخصية حتى تكون قادرة على تجاوز هذا الابتلاء بنجاح بعد المرور بمرحلة الكيد الثانية.

مرحلة الكيد الثانية

(وعلى الرغم من ان غرض القصة القرانية ديني محض الا اننا نستطيع ان نجد بعض العناصر البارزة في معظم القصص التي وردت في الكتاب الكريم) ([٣٧]) ، وفي قصة يوسف "ع " برزت هذه العناصر بشكل جلي وواضح كالصراع والحوار وعنصر المفاجأة وإصرار الشخصيات على التقاطع فيما بينها ، في هذه المرحلة نرى ان القصة تتجه نحو شيء من التفصيل في سرد الاحداث وهذا ما يناسب صراع الشخصيات التي اعلنت عن وجودها في فضاء هذا الجزء من القصة وعلى الرغم من توالي الاصوات في هذا المقطع الا ان الراوي المعجز جلّ جلاله قدّمها نيابة عن الاشخاص وذلك ليزيد يقين المتلقي وليعطي انطباعا ملموسا من انه مطلع على خائنة الاعين وما يعمل في الخفاء من مكر واحتيال ولعل هذه المرحلة التي اعلنت عن بدايتها من قوله تعالى (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ([٣٨]) جاء في الكشاف (انما استعظم كيد النساء لانه وان كان في الرجال الا ان النساء الطف كيدا وانفذ حيلة ولهن في ذلك نبغة ورتقا وبذلك يغلبن الرجال)([٣٩]) فالكيد يكمن هنا في ان امرأة العزيز (لم يدخلها دهش ولم تتحير في امرها وركنت الذنب على يوسف " ع " ولان قيل حيل النساء اسبق الى قلوب الرجال من كثير حيل الرجال)([٤٠]) الأمر الذي قال عنه القران (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)([٤١]) أي المكر والحيلة([٤٢]) نسبه الى جماعة النساء كافة للدلالة على انه صدر منها بما انها من النساء وكيدهن معروف لذلك استعظمه ([٤٣]) ونرى ان الفعل قال ومشتقاته قد احدث مساحة واسعة في لغة سرد القصة وقد ارتبط ارتباطا مهما في الحوار الدائر فيها فالقصة تروى بطريقة واقعية تحاول السير نحو الأعلى والانفراج مرورا بالمحرك الرئيس لها وهو بطلها يوسف " ع " ولان الكيد(البلاء الذي انزل في ساحة يوسف " ع " كان على مستوى عالٍ من الحبكة والنسج المنظم لذلك وصف القران هذا الاحتيال بقوله (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) ولعل الدقة تكمن في قوله تعالى (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ([٤٤]) نراها وقد عدلت عن قولها من اراد بي سوءا إلى ان تجعل ارادة السوء موجهة إلى اهله لتصرف العدوان من ان يكون عليها الى ان يكون عليه هو استدرارا لغضبه من اجل كرامته ولو قالت من اراد بي لتركت له الفرصة للتأمل في صدق قولها او كذبه ([٤٥]) ، الأمر الذي ارهق يوسف " ع " وأشقاه وأسس في قلبه انه مغلوب عندما لم يترك ملجأ للنجاة هنالك دعا ربه (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) ([٤٦]) ولا يخفى على احد ان الجزء الاخير من الاية جاء بمعنى الجزاء وهذا يعني ان يقع الشيء لوقوع غيره وان يتوقف الثاني على الاول ([٤٧]) فالميل والصبو متوقف على عدم صرف الله لهذا الكيد والذي جاء بمعنى الرغبةالعارمة لدى امرأة العزيز في المراودة ، والاية قد فرزت معنى اخر هو ان الرغبة كانت لدى النسوة صويحبات امرأة العزيز بدليل قوله كيدهن ، وأصبو اليهن ، ولكان الكلام كيدها واصبو اليها ، اذ لم يكن نقدهن لامرأة العزيز نابعا من

الفضيلة والالتزام بالمبادىء بدليل توفر الرغبة بالمشاركة في هذاالامر([٤٨]) ، الأمر الذي زاد من رغبة الفريقين في تحقيق مراده ليضع يوسف تحت ضغط البحث عن الخلاص فكان اختيار السجن قد جاء على مبدأ اهون الشرّين ، ويمكن القول ان السجن كان ملاذا آمنا ليوسف" ع " ذهب إليه بمحض اختياره بدليل قوله (السجن احب اليّ) ثم انه لم يكن ليقبل ان يخرج من السجن وما زالت قضية امرأة العزيز لم تقفل بعد فكان طلبه بان يعاد النظر فيها ، وتؤكد القصة على شيء مهم وجاد هو بالرغم من دخوله السجن الا انه لم يكن انهزاميا اختار الانزواء بدلا من التأثير في الواقع الذي يعيش فيه كما هو دور الأنبياء اذ انه استطاع ان يحول هذا التوقف (السجن) إلى مكان للعبادة والقضاء وتأويل الأحاديث فضلا عن الدعوة إلى التوحيد لله تعالى فكان السجن مرحلة بناء وتاسيس الذي تمخض عن عقل سليم وقلب مستيقن (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ([٤٩]) .

وعلى الرغم من ان القصة تسير على وفق التقاط المشاهد الا انها خلقت حالة من الايحائية فما ان ينتهي موقف حتى يبدأ آخر ومشهد آخر يقبض عليه الراوي المعجز ليقصه علينا على وفق نظام السببية ونلاحظ ذلك في علة سجن يوسف " ع " وإلصاق التهمة وتجريمه على الرغم من وجود الدلائل على براءته فالكيد والاحتيال في إلصاق الذنب بيوسف " ع " كان وراء دخوله السجن ، فكانت محطة اخرى من حياة هذا النبي التي دامت ((حتى حين ، قيل إلى سبع سنين عن عكرمة وقيل إلى خمس سنين عن الكلبي وقيل إلى وقت ينسى حديث المرأة معه وينقطع فيه عن الناس خبره ...)) ([٥٠]) بعد ذلك خرج يوسف " ع " من السجن بعد تأويل رؤيا الملك وقد جهل تأويلها اصحاب هذا العلم الذين يحيطون به ، الأمر الذي دفع الملك لمعرفة قصة يوسف " ع " وعلم ببراءته ، وتقص علينا السورة ان الملك قد اختاره واصطفاه واختصه لنفسه حتى كان من خاصته وملته (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) ([٥١]) والاية تنم عن اكثر من معنى:-

الأول :- خروج يوسف " ع " من السجن وقد بان فضله الامر الذي حدا بالملك ان يعجب بمنطقه ورجاحة عقله وكذلك اتزانه((واستدل من كلامه على عقله وعفته وامانته)) ([٥٢])، والأمر الثاني :- ان السجن كان ليوسف " ع " مرحلة نمو وبناء واستعداد لمرحلة اصعب تخص قيادة الدولة وادارة شؤونها الاقتصادية ، وطرح الحلول ساعة الازمة ، فهو متمكن في المنزلة والقدر نافذ القول والأمر)).

وعلى الرغم من هذه المكانة المرموقة وحصوله على البراءة في شرفه وعفته وامانته وبلوغه هذه المنزلة العظيمة الا ان يوسف " ع " لم يكن يشعر بالسعادة اذ لم يكتمل دوره الرسالي بعد ولم يحظ بلقاء ابيه واخيه واجتماعه باخوته من جديد ، وتجسيد رؤياه على ارض الواقع ، فلا بدّ من تسديد الهي ، وتمكين اخر (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) ([٥٣]).

مرحلة الكيد الثالثة

ان قصة يوسف " ع " لا تخرج عن فن السيرة فهي تتبع حياة شخص بعينه ، ولا تسمح لحياة الاخرين ان تقطع هذا السير ولا تتناول من حياتهم الا بالقدر الذي يوضح حياة بطلها او يساعد على رسم شخصيته فهي تمضي مع حركة نمو وتطور وبناء الشخصية لترسم صورة متدرجة تنماز بالاحاطة الشاملة والكاملة متوخية الدقة ، ومن هنا فان الحكمة الالهية اقتضت ان تكون مرحلة اخرى في حياة يوسف " ع " وكيد آخر ولكن مصدر هذا الكيد هذه المرة من الله تعالى ، قد لبس دلالة غير التي تقدمت (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) ([٥٤]) ، (يعني علمناه إياه واوحينا به اليه) ([٥٥]) لتؤسس محطة ثالثة من حياة يوسف " ع " ولتنير جزءا من حياته ما زال مظلما ، مرحلة اختفى فيها الحق ، وحتى تستكمل القصة منهجها القصصي في القول ، والرد ، والاعتراض والمجابهة ، ونهاية مرضية([٥٦]) والملاحظ ان القصة تحاول السير بخطى سريعة للوصول الى هذه المرحلة متجاوزة الكثير من التفاصيل يتركز على شيء واحد هو محاولة امساك خيوط القصة ، وعدم التشظي في مسارات جانبية تفسد العبرة والموعظة التي سيقت من اجلها القصة (قال ابن عباس (رض) وكان بين ان قذفوه في الجبّ وبين ان دخلوا عليه اربعين سنة) ([٥٧]) فالحكمة الالهية هي التي قضت بان اخوة يوسف " ع " قد اصابهم ما اصاب الناس من جوع وقحط ، وهذا السبب هو الذي دفعهم الى اللجوء إلى بلاد مصر ، ليأتي كيد الله (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) وهو نوع من الالهام والتدبير ليوسف " ع " ([٥٨]) للوصول الى الاجتماع باخيه ليكون سببا لوصول خبره الى ابيه([٥٩]) والملاحظ ان دلالة الكيد هنا قد تحولت الى دلالة جديدة تمت باختيار لفظتين ،اولهما لفظ (كدنا) والمقصود (الهمنا كيدا) ، والثانية (دين الملك) والمقصود العقوبة المصرية القديمة القاسية ، فالله تعالى الهم يوسف " ع " ان يسال اخوته عن جزاء السارق في عرفهم ليبقي اخاه وان يأخذه في دين الملك اي شرعه القاسي ، فالتعبير بـ (لفظ كدنا) ابلغ في الدلالة من (الهمنا يوسف كيدا) واختيار لفظ (

دين الملك) على لفظ (شريعة الملك) لان الملك كان يحكم بارادته الفردية فلم تكن له شريعة يلتزم بها ويخضع لحكمها لو قضت عليه ، والمعنى انه ما كان ليوسف " ع " ان يرضى باخضاع اخيه للعقوبة الا ان يشاء الله([٦٠]) .

فالكيد في هذه المرحلة انما هو بمثابة الفيض الالهي الذي خصّ به يوسف " ع " ، فلو لا تدخل العناية الربانية ما كان ليوسف " ع " ان يلتقي بعائلته ، وتنتهي قصته بسجود ابويه واخوته له تأويلا لرؤياه التي جاءت والتي بدت رمزا ودلالة خفية اعتمدت على الايحاء ، والان هي تظهر لا تأويلا لفظيا مثلما فعل سيدنا يعقوب " ع " وانما هي فعل حقيقي وواقع ملموس ليقول يوسف " ع " (يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً) ([٦١])، اذا فَان احداث قصة يوسف " ع " كانت موزعة على ثلاث مراحل ، قامت على مبدأ خفي يربط هذه المراحل الثلاث ، وهو مبدأ اخفاء الحق ، ومن ثم اظهاره ومن هنا تبين الغاية التي استهل القران هذه القصة بـ (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) ([٦٢]) ليكون رمزا دلاليا في النظام الحكائي التي قامت عليه هذه القصة ، لذلك كان ايقاع قصة يوسف " ع " قد غلب عليه الاختصار، وهي صيغة لجأ اليها القران لاختزال احداث كثيرة في ايات قليلة والتركيز على ما يهم ، وليس هذا التكثيف دائما بل تجنح القصة احيانا الى التفصيل وفق معطيات المقام .

الهوامش

١. لسان العرب ، مج ٥ ، ص ٤٥٦.
٢. سورة الأعراف ، الآية ١٨٣.
٣. مفردات الفاظ القران ٨٢٨ .
٤. تاج العروس ، ج٢ ، ص٤٨٩.
٥. النمل / ٥٠ .
٦. مفردات الفاظ القران ٨٢٨ .
٧. يوسف : الاية ٢٧ .
٨. مفردات الفاظ القران : ٢٧٦ .
٩. الفتح : الاية ٦٠ .
١٠. مفردات الفاظ القران : ٢٧٦ .
١١. التعبير القراني : تاليف فاضل صالح السامرائي : ٢٢٤ .
١٢. التعبير القراني : ٢٥١ .
١٣. يوسف :الاية ٨٥.
١٤. يوسف :الاية ٩٨ .
١٥. مجمع البيان مج ٥ – ٦ : ٢١٢ .
١٦. يوسف : الاية
١٧. ينظر تقنيات المنهج الاسلوبي في سورة يوسف : ١٢ .
١٨. يوسف : الاية ١٠ .
١٩. ينظر تقنيات المنهج الاسلوبي في سورة يوسف : ١٢ .
٢٠. يوسف : الاية ٤-٥ .
٢١. ينظر الجامع لاحكام القران ، ج ٩ ، ٨٢ وينظر مختصر تفسير الخازن : ٧٨٩ .
٢٢. ينظر تفسير الكشاف ، الامام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري ، ٤٤٤ .
٢٣. يوسف : الاية ١٩ .
٢٤. يوسف : الاية ١٦ .
٢٥. يوسف : الاية ١٧ .
٢٦. يوسف : الاية ١٨ .
٢٧. يوسف : الاية ١٨ .
٢٨. تقنيات المنهج الاسلوبي في سورة يوسف : ٣٠.
٢٩. مجمع البيان : ٢٠٨ .
٣٠. يوسف : الاية ١٩ .
٣١. يوسف : الاية ٣١ .
٣٢. الوجيز في دراسة القصة : ٦٣ .
٣٣. يوسف : الاية ٢٢ .
٣٤. الميزان في تفسير القران ، ج ١١ ، ١١٨.
٣٥. ينظر المكان نفسه .
٣٦. التعبير الفني في القران الكريم ، د بكري الشيخ امين ، ٢٢٩ .
٣٧. تقنيات المنهج الاسلوبي في سورة يوسف ، ١٩٨ .
٣٨. يوسف : الاية ٢٥ .
٣٩. تفسير الكشاف ، الامام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري ،ص٤٦١.
٤٠. البيان في روائع القران ،د . تمام حسان ، ٣٧٢.
٤١. يوسف : الاية ٢٨ .
٤٢. ينظر : الجامع لاحكام القرآن ،ج٩ ، ١١٥ ؛ وينظر فتح القدير ج٣ ، ٢٣ ؛ وينظر مختصر تفسير الخازن ج٢ ، ٨١٢ .
٤٣. ينظر الميزان في تفسير القران ، ج١١ ، ١٤٣ .
٤٤. يوسف : الاية ٢٥ .
٤٥. ينظر الميزان في تفسير القران ، ج١١ ، ١٤٢ .
٤٦. يوسف : الاية ٣٩ .
٤٧. ينظر البيان في روائع القران ، ٣٧٢ .
٤٨. ينظر البرهان في علوم القران ، ج ٢ ، ٤٦ .
٤٩. يوسف : الاية ٣٩ .
٥٠. مجمع البيان ، مج ٥ – ٦ ، ٢٣٢ .
٥١. يوسف : الاية ٥٤ .
٥٢. مجمع البيان ، مج ٥ – ٦ ، ٢٣٢ .
٥٣. الطلاق : الاية ٢ .
٥٤. يوسف : الاية ٧٥ .
٥٥. ينظر تفسير الكشاف ، ١٩١ ؛ وينظر الجامع لاحكام القران ، ج٩ ، ١١٥ .
٥٦. الصورة الفنية في المثل القراني ، د. محمد حسين الصغير ، ٢١٦ .
٥٧. مجمع البيان ، مج ٥ – ٦ ، ٣٤٥ .
٥٨. ينظر فتح القدير ، ج٣ ، ٥٢ ؛ وينظر مختصر تفسير الخازن ، ٨٢٩ .
٥٩. ينظر مجمع البيان ، مج ٥- ٦ ، ٣٥٣ .
٦٠. ينظر البيان في روائع القران ، ٣٧٢ .
٦١. يوسف : الاية ١٠ .
٦٢. يوسف : الاية ١ .

المصادر

القران الكريم .

البرهان في علوم القران ، محمد بن عبد الله الزركشي ، ٧٩٤هـ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، ط١ ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م .

بناء الصورة الفنية في القران موازنة وتطبيق، تأليف الدكتور: كامل حسن البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧..

البيان في روائع القران، د: تمام حسان، دراسة لغوية وأسلوبية للنص ألقراني، عالم الكتب، ط ٣.

تاج العروس من شواهد القاموس للإمام اللغوي محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي .

التعبير القراني ، تأليف : فاضل صالح السامرائي ، دار الحكمة بغداد ١٩٨٦ – ١٩٨٧ .

التعبير الفني في القران ، د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين .

تفسير الكشاف من خصائص غوامض التنزيل وعيوب الأقاويل في وجوه التأويل ، الإمام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ)، الناشر الكتاب العربي .

تقنيات المنهج الاسلوبي في صورة يوسف دراسة تحليلية في التركيب والدلالة ، د. عبد الهادي الدجيلي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٢٠٠٣ .
الجامع لاحكام القران لابي عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ ت. سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠.

الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية ، د: محمد حسين الصغير ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١ .
فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، الامام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠هـ ، ضبطه وصححه احمد عبد السلام – دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٤.

لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان.

مجمع البيان في تفسير القران ،، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسين الطبرسي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، وقف على تصحيحه وتحقيقه والتعليق عليه الفاضل المتتبع الحاج باسم المحلاتي .
مختصر التفسير الخازن ، المسمى لباب التاويل في معاني التنزيل – للامام علاء الدين بن محمد البغدادي المعروف بالخازن ، اختصره وهذبه الشيخ عبد الغني الدقر – دار اليمامة للطباعة – دمشق – بيرون ، ط١ ، ١٩٩٤.
مفردات ألفاظ القران ، العلامة الراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان عدنان داودي ، منشورات ذوي القربى ،دار القلم دمشق ، ط٣ .

الميزان في تفسير القران ، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

الوجيز في دراسة القصص ، ترجمة عبد الجبار المطلبي ، منشورات دار الشؤون الثقافية والنشر ، بغداد ، ١٩٨٢.